عزاء من الله ...

للأديب لبيب السعيد

علم رسول الله بالنازلة الجليلة ، فغشيه من الحزن ما لم يستطع ردّه ، وشاع فى نفسه الهمّ الشديد حتى ليبدو للعيان فى صفحة وجهه الوضاء .

إنّ بينه وبين فقيد اليوم قربة الروح والدين فوق قرابة الدم ... فالفقيد هو جعفر بن أبى طالب أحد « الرّقباء النجباء » الذين يعتز بهم ويشيد بفضلهم ؛ وفى سبيل دعوته الناشئة آثر الاغتراب فى البلد النازح على الإذعان لأعداء الدعوة فى أرض الوطن ، فتحمّل بزوجه إلى الحبشة ، حيث جعل الله على يديه إسلام عاهلها ومن تبعه . والفقيد من أبرّ الناس بالمسلمين ، و « أبو المساكين » كما هو يكنيه ؛ وهو أحرص الناس على الأخذ بأخلاقه حتى ليبدو أشبهَ الناس به خُلُقاً إلى كونه أشبههم به خَلْقاً .

وهو بعدُ ابن عمّه ...

* * *

لقد كانت أوبةُ جعفر من مُهَاجره قريبة العهد ، فما انقضى عليها غير عام وأربعة أشهر . ولقد آب يوم فتح الله على رسوله والمؤمنين حصون « خيبر » بعد عراك وجهد ، فكان الرّسول صلى الله عليه وسلم فى غمرة الأفراح يقبّله بين عينيه ، ويلتزمه ، ويقول : « ما أدرى بأيّهما أنا أسرّ ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟ » ويقول له كذلك : « أشبهتنى خُلُقاً وخَلْقاً » فكانت نشوة الفرح والاعتزاز بهذه المواطف وهذا التشريف تأخذ جعفراً حتى ليرقص من فرط الطّرب والسّعادة .

فوا أسفا ! أأقبل جعفر ليدبر ؟ أتحقّقت لقلب الرسول رجيّته ليثكلها بعد حين قليل ؟ يا رحمتاه لهذا القلب ! !

ولقد كان جعفر أمس القريب حين خرج مع السّريّة يكلم رسول الله فى ألاّ يقدّم عليه زيد بن حارثة ، لا إيثاراً لنفسه على زيد ، ولكن رجاوة السّبق إلى لقاء المكاره فى سبيل دينه ... واستصغاراً للنّصيب الذى فُرض له من أعباء الجهاد ؛ ورغبةً حارّة فى أحسن بلاء يتاح لمسلم .

فأين أمس ، حين النبىّ يجيبه : « امض ، فإنك لا تدرى أىّ ذلك خير » ، وحين النبى فى توديعه هو والجيش ، وحين المسلمون ينظرون إليه وإلى الغُزاة نظرة الأمل ، ويدعون لهم أطيب الدعاء ؟

أين أمس ؟ ... لقد كان آخر العهد وفرقة الدهر ! !

وجعفر تخطّفه الموت وهو يطاحن مع ثلاثة آلاف من إخوانه المسلمين مائتى ألف جمّعها « هرقل » وزوّدها بما استطاع من عدّة ...

ولم يلق جعفر حتفه كما يتّفق ، بل لقيه على نحو سيظلّ فى القرون والأجيال آيةً مثاليةً باهرةً ، وذكرى مرويّةً لمن تبيد ...

كان زيد بن حارثة يقاتل براية رسول الله عليه الصلوات « حتى شاط فى رماح القوم[1] » فتلقف جعفر الراية ، وانطلق يقاتل بها قتال المتشوّف لإحدى الحسنيَيْن ، حتى إذا ما ألجمه القتال اقتحم عن فرسه ، فعقرها ، كيلا ينتفع بها العدو ، وما برح يقاتل — كما أوصى الرسول يوم هيأهم للخروج — « باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله » ، ولواء النبى الأبيض فى يمينه تباهى به وتباهى بها ... حتى جاءته ضربة أطاحت بهذه اليمين ...

وكان طَبَعيًّا لمن قد يليه أن يُسلّم الراية لغيره — إن قدر على حفظها — ويتخلّف بعض الوقت لينظر أمره ... ولكن جعفراً الذى أعار الله حياته ، والذى لا يعرف شيئاً يمنعه عن المضىّ فى شرف الجهاد ، والذى لا يمكن أن يذل فى قراع النوائب أخذ اللواء الكريم بشماله ، وما انفكّ يصاول العدو أروع الصّيال مستميتاً :

الجيش المقبل وقد عقد من خلفه النقع وأثار رمال الصحراء ؟ ولمن هذه الوجوه المتهللة المزهوّة بالنصر ؟

إنه لأسامة ، وإنه لجيشه ...

لقد فاز وسلم وغنم ...

* * *

رحمك الله يا أسامة ، وطيّب ثراك ، وخلّد ذكراك ، فقد حققت ثقة النبى فى وقت ضعفت فيه الثقة بك ، وقهرت عدواً للاسلام عزّ على غيرك قهره ، وضربت لشباب اليوم مثلاً من شباب الأمس

أحمد حسن الزيات المحامى

(١) رواية ابن هشام ٣ : ٢١٤ ؛ وشاط بمعنى هلك

يا حبّذا الجنة واقترابها طيّبة وباردٌ شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
عليَّ إذ لاقيتها ضِرابها

حتى جاءته ضربة أخرى أطاحت بيساره ...

أخمدت لجعفر الصيّب المنقطع ذراعاه همة ؟ أو فلّت له عزمة ؟ كلا ! فهو لم يدع اللواء العزيز المزهوّ يسقط أو يخزى وإنما احتضنه بعضديه ، منشوراً لا يُطوى ، كريماً لا يهون ، والطعان تترى على جعفر فلا يولّيها دبره ، وإنما يتلقاها فى استعذاب حتى لتبلغ جراحه بضعة وسبعين كلها فيما أقبل من بدنه . ولا يزال جعفر فى المعمعة يهدر بنشيده القوى : « يا حبذا الجنة واقترابها » حتى تتحقق له الشهادة ، إذ يجيئه رومىٌّ فيضربه ضربةً تقطعه نصفين ...

وهنالك فقط يدع الراية لمسلم ثالث ؟

هذا هو القتيد ...

* * *

وأتى الرسول صلوات الله عليه إلى بيت جعفر يتفقد يتامى تركهم من خلفه خُضراً كأفراخ القطا ، ويعزّى عن المصاب فيه شريكته المرزّأة : أسماء بنت عميس ؛ وإنه ليطلب إليها أن تأتيه بينيها ، وهو يحبس عنها النبأ الفاجع ، ويأخذ أطفالها فيشمهم ، وينظر إليهم نظرة الأسى المرير ... فيتمثل — إذ يراهم — وجه أبيهم المقتى لتى حتفه وهو فى عنفوان شبابه ، ويتمثل حلاوة أخلاقه وأن كان يداً قوية للمسلمين على عدوّهم ، وقلباً انطوت على حب الله ورسوله والإسلام لفائقه ، وأترعت بالإيمان والإخلاص والعزم جوانبه ، فتفيض عيناه الشريفتان رحمة وحناناً ...

وأسماء تستوضحه : « بأبى أنت وأمي يا رسول الله ... ! ما يبكيك ؟ »

وتصيح من هول ما تسمع ... ويجتمع إليها النساء ، فيعزيها الرسول فى حنوٍّ وعطف وينهاها : « يا أسماء ! لا تقولى : هجرا ، ولا تضربى خدّاً » ... ويتوجه إلى الله ضارعاً : « اللهم قدّمه إلى أحسن الثواب ، وأخلفه فى ذريته بأحسن ما خلفتَ أحداً من عبادك فى ذريته ! »

كان خطب البيت النبوى فى جعفر خطباً أحسّوا له جميعاً لوعة متسعرة ؛ وانظر كيف تدخل فاطمة على أبيها رسول الله وهى تبكي وتقول : « وا عمّاه ! ... فيقول والأشجان ملء فؤاده : « على مثل جعفر فلتبك البواكى ! »

* * *

ويشاء الله برحمته أن يمسح بيده الآسية على قلب نبيه وآله ، وأن يعزّيهم عن جميعهم الحمراء عزاء فذّاً كمصابهم الفذ ، فهذا الرّوح الأمين ينزل على الرسول المحزون ، فيبلغه أن الله قد عوض جعفراً عن ذراعيه بجناحين مضرجين بالدماء ، يطير بهما مع الملائكة فى الجنة ...

يا بشرى ! ! وهل يبغي حبيب لحبيبه شيئاً وراء ذلك ؟

ثم هذا النبي عليه الصلاة والسلام يرفع مرة رأسه إلى السماء فيقول : « ... وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ! » فيقول الناس : « يا رسول الله ! ما كنت تصنع هذا » فيجيبهم : « مرَّ بى جعفر بن أبى طالب فى ملأ من الملائكة فسلم علىَّ ... »

ندى هذا العزاء الإلهى على الأكباد القريحة وصرف عنها الجزع ونعم الآسى آسٍ من روح الله ، ونعم العزاء عزاء بقدر البلاء !

(المنصورة) لبيب السعيد

مجلة الفكرة العربية والثقافة الاسلامية

تصدر فى القاهرة أول كل شهر عربى

صدر العدد الجديد « شهر صفر » ومن أهم موضوعاته :
الخط المستقيم . صوت الدعوة من الملايو . علماء تركستان القدماء . من شعر إقبال وجلال الدين . الفرق بين الموسيقى العربية والموسيقى الافرنجية . أول بيعة فى الاسلام . لواء الوحدة الاسلامية . أسباب انحلال الدولة الأموية . وجهة النظر الصحيحة إلى الاسلام . إعجاز القرآن فى علم طبقات الأرض . ليك يا زعيمى بقلم المعلم الالزامى . نشأة الأساطير . أعداء الطبيعة . رسل الحضارة الظاهرة

الاشتراك السنوى فى مصر والأقطار العربية ٢٠ قرشاً . وللمعلم الالزامي والطالب ١٥ قرشاً .
للمكاتبات وطلب الأعداد بعنوان :
الأنصار : ٢٤ شارع البحتان . القاهرة